تجديد فهم النص النبوي بين ضوابط المحدثين ودعاوى المستغربين

بحث مقدم
إلى المؤتمر العلمي الأول
تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
المنعقد بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١

إعـــــداد
الدكتـــور
محمد إبراهيم محمد الحلواني
مدرس الحديث وعلومه في كلية أصول الدين والدعوة جامعة الأزهر
فرع المنصورة

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، العزيز الوهاب، الرحيم التواب، الذي شملت رحمته كل العباد، وأشهد أن لا إله إلا الله رب الأرباب ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله النبي الأواب، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد في الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

إن التجديد في النص النبوي يراد به العودة إلى المنابع والأصول عودة كاملة ، وترك التقليد الفاسد القائم على المحاكاة على غير بصيرة ، فالتجديد عملية إصلاحية، وليس عملية تخريبية، والتجديد في السنة النبوية هو تعليم الناس سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ونفي الكذب عليه ، وإزالة الشبهات الواردة حول سنته ، يقول أبو الأعلى المودودي: التجديد في حقيقته هو: تنقية الإسلام من كل جزء من أجزاء الجاهلية، ثم العمل على إحيائه خالصا محضا على قدر الإمكان[١]،وقد أشار المصطفى صلى الله عليه وسلم إلى ذلك قائلا: (**إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مِئة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَها**[٢])، قال العلقمي في شرحه: معنى التجديد: إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما[٣]، ومن الفتن التي ظهرت في

---

١ – أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، ص٥١، دار الفكر الحديث، لبنان، ط: الثانية، ١٩٦٧م.

٢– أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة ، رقم (٤٢٩١) ، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، دار الرسالة العالمية، ط: الأولى، ٢٠٠٩م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

٣– محمد شمس الحق العظيم آبادي ، عون المعبود شرح سنن أبي داود ٢٦٠/١١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٥هجرية.

هذا العصر الدعوة إلى قراءة النص الشرعي قراءة جديدة تواكب تطورات الحياة ، وتكمن خطورة هذه الدعوة في أنها قامت على أيدي أناس ينتسبون إلى ديننا، فهم يطرحون أفكارهم وآرائهم على أنها رؤى ناشئة عن الاجتهاد في فهم النص، فهم يحرفون النصوص عن معانيها بتأويلاتهم الباطلة، والسبب في هذه التأويلات المنحرفة تأثرهم بالفلسفات الغربية ، ودراستهم في الجامعات الأوروبية، وجهلهم بالشريعة الإسلامية، فهم يريدون إخضاع النصوص الإلهية لمبادئ الفلسفات الغربية ، ظنا منهم أن هذه التفسيرات المنحرفة هي الطريق الأوحد للتقدم والرقي واللحاق بركب الحضارة المادية الغربية، يقول محمد يسري إبراهيم: إن التجديد عند المتغربين وأرباب العلمنة والحداثة، وربائب الاستعمار، وصنائع الليبرالية، يتضمن زحزحة الإسلام عن ضبط الحياة، وفصل الدين عن الدنيا، باسم المدنية تارة، وباسم الحرية تارة أخرى، وهذا عين الطمس والتحريف والتدمير والتبديد، وهو في حقيقته نبذ الشريعة والقيم والمعتقدات، والقضاء على الأخلاق والسلوك باسم التجديد، وتجاوز جميع ما هو قديم، وقطع صلة الأمة به[١] ، إن العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام والحدود التي استبانت معالمها في الكتاب والسنة هي هداية الله خلقه، وكل محاولة للبتر ، أو الإضافة ، أو التحوير فهي خروج على الإسلام، وافتراء على الله، وافتيات على الناس، وتهجم على الحق بغير علم، وليس يقبل من أحد البتة أن يقول هذا نص فات أوانه ، أو هذا حكم انقضت أيامه، أو أن الحياة بلغت طورا يقضى بترك كذا من الأحكام ، أو التجاوز عن كذا من الشرائع ، فهذه كلها محاولات لهدم الإسلام وإعادة الجاهلية[٢] ، إن تجديد فهم النص النبوي وفق الضوابط التي وضعها المحدثون هو الطريق الأمثل لفهم كتاب الله عز وجل،

---

١ – محمد يسري إبراهيم، فقه الأولويات في الخطاب السلفي المعاصر ص٧٩، دار اليسر، مصر، ط: الثانية، ٢٠١٢م.

٢– محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام ؟ ص١٣٨، دار نهضة مصر، ط: الأولى.

لكن أدعياء التجديد أبوا إلا أن يفسروا الوحي الإلهي المتمثل في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم بعقولهم اعتمادا على أفكار غربية ما أنزل الله بها من سلطان ، فضلوا وأضلوا .وقد صدق القائل : أعمى يقود بصيرا، لا أبا لكم قد ضل من كانت العميان تهديه ، ونظرا لأهمية هذا الموضوع من الناحية العلمية، ولحاجة الباحث إلى معرفة ضوابط المحدثين في فهم النص النبوي ، فقد آثرت المشاركة في هذا المؤتمر ببحث عنوانه: (تجديد فهم النص النبوي بين ضوابط المحدثين ودعاوى المستغربين) مستعينا بالله ومتوكلا عليه ، وطالبا منه العون والسداد ، إنه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير.

مشكلة البحث:

تنشأ مشكلة البحث حينما ننظر إلى البعض فنراهم غلوا في فهم النص النبوي ، ففهموا ما جاء عن النبي بطريق الغلو ، بينما نجد البعض الآخر قد أجحفوا ، ففهموه بطريق التقصير، فكلا الطائفتين حملت أقواله صلى الله عليه وسلم ما لا تحتمل، وهذا عدول عن الصواب، فجاء هذا البحث لبيان الضوابط التي اعتمدها المحدثون لفهم النص الحديثي فهما صحيحا.

أسئلة البحث:

١- ما هي الضوابط التي وضعها المحدثون لفهم النص النبوي فهما صحيحا ؟

٢- ما هي الأسباب التي تؤدي إلى الانحراف في فهم النص النبوي؟

٣- ما هو الفرق بين فهم علماء الحديث للنص النبوي وفهم المستغربين؟

٤- ما سبل مواجهة التجديد التحريفي؟

أهداف البحث:

١- بيان الضوابط التي وضعها المحدثون لفهم النص النبوي فهما صحيحا.

٢- بيان الأسباب التي تؤدي إلى الانحراف في فهم الحديث.

٣- بيان الفرق بين فهم علماء الحديث للنص النبوي وفهم المستغربين.

٤- بيان سبل مواجهة التجديد التحريفي.

خطة البحث:

أقسم هذا البحث إلى خمسة مباحث:

المبحث الأول: مفهوم التجديد في ضوء السنة النبوية.

المبحث الثاني: ضوابط التجديد في ضوء السنة النبوية.

المبحث الثالث: بيان الأسباب المؤدية إلى الانحراف في فهم الحديث.

المبحث الرابع: الفرق بين التجديد عند السلف الصالح و العصرانيين.

المبحث الخامس: سبل مواجهة التجديد التحريفي.

الخاتمة: أبرز النتائج وأهم التوصيات.

المبحث الأول: مفهوم التجديد في ضوء السنة النبوية.

ليس التجديد وضع أصول وقواعد ومناهج جديدة للدين، كما يزعم كثير من المفكرين والكتاب، ولكن المفهوم الحقيقي للتجديد هو استئناف العمل بالدين اعتقادا وعملا، وإحياء ما اندثر من السنن ، وإماتة ما ابتدع من البدع والمحدثات، كما صنع المجددون من أئمة الإسلام في تاريخ المسلمين إلى يومنا هذا، ويراد بالتجديد أيضا النظر في الواقع وتقويمه من خلال المنهج النبوي، يقول الشيخ محمد الغزالي: توضيح ما أبهم الجهل من تعاليمه، وتمكين ما زحزح التهاون من أمره، وحسن الربط بين أحكامه وبين ما تحدث الدنيا من أقضية ، وتنزيل أحوال الحياة المتغايرة على مقتضيات القواعد العامة والمصالح المرسلة ، ولم يفهم أحد من العلماء الأولين أو الآخرين أن تجديد الدين يعني تسويغ البدع، ومطاوعة الرغبات، وإتاحة العبث بالنصوص والأصول لكل متهجم[١]، ولفظ التجديد إذا نظرنا إليه في السنة النبوية نجد أنه قد ورد في بعض الأحاديث بصيغة المضارع ، من هذه الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله عز وجل يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مِئة سنةٍ من يُجَدِّدُ لها دينَها**[٢])، ومنها: (**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلِقُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ.**[٣])، وورد لفظ التجديد بصيغة الأمر كما في قوله صلى الله عليه وسلم: ("**جددوا إيمانكم" قيل: يا رسول الله وكيف نجدد إيماننا؟ قال:**

١- محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام ؟ ص١٣٨.

٢- سبق تخريجه.

٣- أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٣٦/١٣، رقم (٨٤) عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: الثانية، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، والحديث صححه الحاكم في المستدرك والذهبي، (المستدرك ٤٥/١، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٠م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا)

"**أكثروا من قول: لا إله إلا الله**[١]." وورد أيضا بصيغة الماضي كما في قوله صلى الله عليه وسلم: (**مَا مِنْ مُسْلِمٍ، وَلا مُسْلِمَةٍ يُصَابُ بِمُصِيبَةٍ، فَيَذْكُرُهَا وَإِنْ طَالَ عَهْدُهَا – قَالَ عَبَّادٌ: قَدُمَ عَهْدُهَا – فَيُحْدِثُ لِذَلِكَ اسْتِرْجَاعًا، إِلا جَدَّدَ اللهُ لَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَأَعْطَاهُ مِثْلَ أَجْرِهَا يَوْمَ أُصِيبَ بِهَا.**[٢])، من خلال الأحاديث السابقة يظهر لنا أن المراد بالتجديد الإحياء والبعث والإعادة، فالتجديد يتضمن النفي والإضافة، ينفي كل دخيل يمس أصوله أو فروعه بالتبديد ، أو التأويل الفاسد ، والانتحال الباطل ، ويحرس الدين بإضافة تقتضي تنزيل الأحكام الشرعية على ما يجد من وقائع وأحداث.

١- أخرجه أحمد في مسنده ٣٩٥/٨، رقم (٨٦٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال أحمد شاكر: إسناده حسن، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٢- أخرجه أحمد في مسنده ٢٥٧/٣، رقم (١٧٣٤) عن الحسين بن علي رضي الله عنه، وقال أحمد شاكر: إسناده ضعيف جدا.

المبحث الثاني: ضوابط التجديد **في ضوء السنة النبوية.**

إن الذي يبغي التجديد في فهم النص النبوي ينبغي عليه أن يتحلى بالصفات التي أرشدنا إليها النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يتقيد بالضوابط التي وضعها علماؤنا الأجلاء ، ومن أبرزها :

أولا: الإخلاص وحسن القصد.

إن الراغب في فهم النص النبوي كما أراد الله إذا لم يكن مخلصا لن يوفق لإصابة الفهم الصحيح للنص، وكل إنسان لا يستصحب النية الصالحة، ولا يخلص في عمله يحيد عن الحق، ولا يصيب كبد الحقيقة، وكيف يوفق لفهم النص فهما صحيحا وقد أراد بعمله غير الله؟ ولهذا يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم: (**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللَّهُ بِهِ.**[1])، أي: من عمل عملا من الأعمال الصالحة يقصد به أن يسمع به الناس، فيشتهر عندهم بالدين والخير والصلاح جازاه الله على عدم إخلاصه بالفضيحة بين الناس، وأظهر لهم منه ما كان يبطنه، فأصبحوا ينظرون إليه باستهانة واحتقار[2]، فمن آثار الرياء حبوط العمل، وضياع الجهد، وعدم التوفيق للحق، وحصول الضيق والاضطراب، وهذا ما نراه بوضوح في أدعياء التجديد فنجد أقوالهم مضطربة، وأهوائهم متغيرة ، وأمزجتهم متقلبة ، فالبون شاسع بين من يعمل لله وبين من يعمل لغير الله.

١- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، رقم (٦٤٩٩) عن جندب ، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هجرية.

٢- حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري ٥/٣٠٠، دار البيان، دمشق، سوريا، ١٩٩٠م.

ثانيا: الفهم في العلم:

بوب الإمام البخاري بابا مستقلا وسماه : (باب الفهم في العلم) ، وهذا تأكيد منه على أهمية الفهم، وأثره في التعامل مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد قرن العلم به ، ونفى الفهم عمن لا علم له، قال ابن بطال: التفهم للعلم هو التفقه فيه، ولا يتم العلم إلا بالفهم، وكذلك قال علي: والله ما عندنا إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مؤمن، فجعل الفهم درجة أخرى بعد حفظ كتاب الله، لأن بالفهم له تبين معانيه وأحكامه، وقد نفى صلى الله عليه وسلم العلم عمن لا فهم له بقوله: (رب حامل فقه لا فقه له) ، وقال مالك: ليس العلم بكثرة الرواية، وإنما هو نور يضعه الله في القلوب، يعني بذلك فهم معانيه واستنباطه، فمن أراد التفهم فليحضر خاطره، ويفرغ ذهنه، وينظر إلى نشاط الكلام ، ومخرج الخطاب، ويتدبر اتصاله بما قبله، وانفصاله منه، ثم يسأل ربه أن يلهمه إلى إصابة المعنى[١].

ثالثا: تحصيل علوم الآلة.

إن المجتهد في فهم النص الشرعي يجب عليه تحصيل علوم الآلة ، لأنها تؤدي إلى فتح مغاليق النص ، كيف يفهم النص من لا يعرف العربية ، أو علم أصول التفسير ، أو الحديث ، أو الفقه؟ ولذا عاب الإمام الشوكاني الطاعنين في العلوم الذين لا يعرفون عنها شيئا، قائلا: (وإني لأعجب من رجل يدعي الإنصاف والمحبة للعلم ويجري على لسانه الطعن في علم من العلوم لا يدري به ، ولا يعرفه ، ولا يعرف موضوعه ،ولا غايته، ولا فائدته، ولا يتصوره بوجه من الوجوه، وقد رأينا كثيرا ممن عاصرنا ورأيناه يشتغل بالعلم، وينصف في مسائل الشرع، ويقتدي بالدليل، فإذا سمع

---

١ – علي بن خلف أبو الحسن ابن بطال، شرح صحيح البخاري ١٥٧/١، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط: الثانية، ٢٠٠٣م.

مسألة في فن من الفنون التي لا يعرفها نفر منه طبعه ، ونفر غيره، وهو لا يدري ما تلك المسألة، ولا يعقلها قط، ولا يفهم شيئا منها، فما أحق من كان هكذا بالسكوت والاعتراف بالقصور، والوقوف حيث أوقفه الله، والتمسك في الجواب إذا سئل عن ذلك بقوله: لا أدري.[١]) والذي يدعو للعجب ويثير الدهشة أن بعض أدعياء التجديد في العصر الحاضر ممن ران على قلوبهم لا يعرفون شيئا عن هذه العلوم، فيتخبطون في فهم النصوص تخبطا عشوائيا، فيأتون بشواذ الأقوال ومرجوح الآراء ، ويجمعون بين الغث والسمين، يقول الإمام الشافعي : فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده حتى يشهد به أن لا إله إلا الله، ويتلو به كتاب الله، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك[٢]، إذا فتعلم العربية لغة ونحوا هو من الضروريات الممهدة لدراسة الشريعة ، ومن العلوم الواجب تعلمها أيضا علم أصول التفسير وهو: العلم الذي يتعلق بالقرآن الكريم من ناحية نزوله وترتيبه وجمعه وكتابته وقراءاته ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وإعجازه وأساليبه ودفع الشبه عنه[٣]، ومن أبرز العلوم التي لا غني لمجتهد عنها علم مصطلح الحديث، فهو من أشرف العلوم بعد كتاب الله عز وجل، وذلك لشرف موضوعه، ولاشك أن السنة أساس يقوم عليه نظر الفقيه ويبني عليه اجتهاده فإن لم يتبين له ما يصح أنه سنة مما لا يصح ، فعلى أي أساس سيقيم بنيانه؟ يضاف إلى ما تقدم علم أصول الفقه وهو:

---

١ – محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأدب ص١٧٥، دار ابن حزم ، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٩٩٨م.

٢– محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة ص٤٣، مكتبة الحلبي، مصر، ط: الأولى، ١٩٤٠ هجرية، تحقيق: أحمد شاكر.

٣– مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن ص٨، دار الكلم الطيب، دمشق، ط: الثانية ، ١٩٩٨م.

"العلم الذي يعنى ببحث مصادر الأحكام وحجيتها ومراتبها في الاستدلال بها، وشروط هذا الاستدلال، ويرسم مناهج الاستنباط، ويستخرج القواعد المعينة على ذلك، والتي يلتزم بها المجتهد عند تعرفه على الأحكام من أدلتها التفصيلية[١]"، فمن رام الوقوف على أسباب اختلاف العلماء وتكوين ملكة فقهية تمكنه من استنباط الأحكام من الأدلة التفصيلية وجب عليه دراسة هذا العلم.

رابعا: أخذ علوم السنة عن أهلها .

إن أخذ علوم السنة عن أهلها ركيزة أساسية للفهم الصحيح، فلابد من الرجوع إلى أهل الاختصاص في أي علم من العلوم، ولا سيما علم الحديث قبل أن يستعين به استدلالا أو استشهادا أو استنباطا، يقول الإمام الشوكاني رحمه الله وهو من العلماء البارزين في علم الحديث: (وأما أخذ العلم عن غير أهله ورجَّح ما يجده من الكلام لأهل العلم في فنون ليسوا من أهلها، فإنه يخبط ويخلط، ويأتي من الأقوال والترجيحات بما هو في أبعد درجات الإتقان، وهو حقيق بذاك، فإن من ذهب يقلد أهل الفقه فيما ينقلونه من أحاديث الأحكام، ولم يقتد بأئمة الحديث، ولا أخذ عنهم، واعتمد مؤلفاتهم، كان حقيقا بأن يأخذ بأحاديث موضوعة مكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويفرع عليها مسائل ليست من الشريعة، فيكون من المتقولين على الله بما لم يقل ، المكلفين عباده بما لم يشرعه، فيضل ويضل.[٢])، ولهذا رحل الصحابة والتابعون وتابعو التابعين إلى البلدان والأمصار لأخذ علوم السنة عن أهلها ، إذ كان من لوازم طريقة المحدثين ومنهجيتهم في التحصيل العلمي تتبع الرواة

١- عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه ص٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:الخامسة، ١٩٩٦م.

٢- محمد بن علي الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأدب ص٧٦.

بعضهم بعضا على سبيل الاحتياط والتثبت ، وقد زادت الحاجة إلى ذلك عقب ظهور الفتن والمذاهب الفكرية والسياسية التي تأثرت بالأهواء الشخصية.

خامسا: الإنصاف وترك التعصب.

إن التعصب لعالم من العلماء أو لمذهب من المذاهب يحول دون الوصول إلى الحق أو الحقيقة، ويحد من قدرة العقل على فهم النص فهما صحيحا، يقول الشوكاني: وإنما كان — المنصف- أبصر الناس بالحق إذا اختلف الناس، لأنه لم يكن لديه هوى ولا حمية ولا عصبية لمذهب من المذاهب ، أو عالم من العلماء ، فصفت غريزته عن أن تتكدر بشيء من ذلك ، فلم يكن له مأرب ولا مقصد إلا مجرد معرفة ما جاء عن الشارع ، فظفر بذلك بسهولة من غير مشقة ولا تعب، لأنه إما موجود في كتاب الله وهو بين أظهرنا في المصاحف الشريفة مفسر بتفاسير العلماء الموثوق بهم ، وإما في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي أيضا موجودة قد ألف أهل العلم في أدلة المسائل من السنة كتبا متنوعة ، منها ما هو على أبواب الفقه، ومنها ما هو على حروف المعجم فكان تناوله يسيرا ، ثم قد تكلم الأئمة على صحتها وحسنها، فجاؤوا بما لا يحتاج الناظر معه إلى غيره ، ووضعوا في ذلك مؤلفات مشتَمِلة على ذلك اشتمالا على أحسن وجه وأبدع أسلوب، ثم أوضحوا ما في السنة من الغريب، بل جمعوا بين المتعارضات، ورجحوا ما هو راجح، ولم يدعو شيئا تدعو إليه الحاجة ، فإذا وقف على ذلك من قد تأهل للاجتهاد، وظفر بعلومه، أخذه أخذ غير أخذ من لم يكن كذلك ، وعمل عليه مطمئنة به نفسه، ساكنة إليه، نافرة عن غيره ، هاربة منه.[١]

١- المصدر السابق ص٣٦.

سادسا: جمع روايات الحديث الواردة حول موضوع واحد.

إن جمع الروايات الواردة حول موضوع معين وسيلة هامة تعين على فهم الحديث فهما صحيحا، فلا يكفي لاستنباط حكم أو إصدار فتوى الاعتماد على رواية واحدة فقط حتى ولو كانت صحيحة، وإذا كان القرآن الكريم يفسر بعضه بعضا حتى يصح إدراك معانيه وفهمُ مراميه فكذلك الحديث النبوي، بل الأمر فيه أولى، لكثرة طرقه، واختلاف رواياته، قال أحمد بن حنبل: الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضا[١]، ففي جمع الطرق الخروجُ من خلاف من شرط في قبول الخبر أن تتعدد طرقه، فقيل لاثنين، وقيل لثلاثة، وقيل لأربعة، وقيل حتى يستحق اسم الشهرة، فكان في جميع الطرق ما يحصل المقصود لكل أحد غالبا، وفي جمع الطرق أيضا ومعرفة من رواها وكميتها العلمُ بمراتب الرواة في الكثرة والقلة، وفيها الاطلاع على علة الخبر بانكشاف غلط الغالط، وبيان تدليس المدلس، وتوصيل المعنعن، وفي جمع الطرق ما يحصل به التمييز بين أهل الفهم في النقل وغيرهم ممن لا يهتدي لتحصيل ذلك[٢].

سابعا: مراعاة السياق.

للسياق أهمية كبيرة في فهم السنة، وقد نبه الإمام الشافعي إلى هذا في فهمه للسنة خصوصا و للنصوص الشرعية عموما قائلا: إن مما تمتاز به اللغة العربية التي نزل بها الشرع اتساع معانيها، فلربما نزل الخطاب بلفظ ظاهر يعرف في سياقه أنه يراد به

١- أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع٢/٢١٢، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق: د. محمود الطحان.

٢ - محمد الخضر بن سيد عبد الله الشنقيطي، كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري ١١/٤٤٤، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م.

غير ظاهره[١]، وقال ابن دقيق العيد رحمه الله: إن السياق طريق إلى بيان المجملات، وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه، ولم أر من تعرض لها في أصول الفقه بالكلام عليها ، وتقرير قاعدتها مطولة إلا بعض المتأخرين ممن أدركنا أصحابهم، وهي قاعدة متعينة على الناظر، وإن كانت ذا شغب على المناظر[٢].

ثامنا: الإلمام بعلم ناسخ الحديث ومنسوخه.

إن معرفة ما وقع فيه النسخ من الحديث النبوي من أهم ما يساعد على حسن فهم السنة النبوية، ومما يؤكد ذلك أن الإمام علي رضي الله مر بقاص، فقال: أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت[٣]، يقول د. نور الدين عتر: ومعرفة ما وقع فيه النسخ من الحديث علم مهم، لا ينهض به إلا كبار أئمة الفقه، وقال الزهري: أعيا الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه، وهذا الفن من ضرورات الفقه والاجتهاد، وقد ارتكب خطأ جسيما ، وركب مركبا صعبا من تسول له نفسه الفتوى بالحديث بزعمه، مع عطله من هذا العلم، فضلا عن الشروط الأخرى[٤]، إن عمل المسلم بالحديث من غير معرفة ما إذا كان الحديث منسوخا يوقعه في العلم بما لم يكلف به شرعا، لأننا لسنا

١- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة ص٥٠، بتصرف.

٢ - محمد بن علي بن وهب المعروف بابن دقيق العيد، إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام ٤٢٤/١، مؤسسة الرسالة، ط: الأولى، ٢٠٠٥م.

٣- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي ١٨٩/٢، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٤- د. نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص٣٣٧، دار الفكر، دمشق، سورية، ط: الثالثة، ١٩٨١م.

مكلفين بالعمل بالأحاديث المنسوخة، والنسخ علة تمنع من العمل بالحديث، قال السيوطي: والنسخ قد أدرجه في العلل الترمذي، وخصه بالعمل[١].

تاسعا: الإلمام بعلم مختلف الحديث.

إن المتخصص في علم الحديث إذا لم تكن لديه دراية بعلم مختلف الحديث لن يتمكن من فهم النص النبوي فهما صحيحا، وما من عالم إلا وهو مضطر إليه، ومفتقر إلى معرفته، قال الإمام النووي مبينا أهمية هذا العلم : هذا من أهم الأنواع، والعلماء بالحديث والفقه والأصول وغيرها وغيرهم مضطرون إلى معرفته[٢]، ومن منافذ أدعياء التجديد للطعن في السنة باب مختلف الحديث حيث اتهموا السنة النبوية بالتناقض، ورموا حملتها بالكذب والافتراء ، وقد تصدى للرد عليهم وتفنيد مزاعمهم علماء الحديث الذين صنفوا في هذا العلم، حيث بينوا من خلال هذه المؤلفات أنه لا يوجد تعارض حقيقي بين الأحاديث الصحيحة، لذلك وجب على المشتغل بعلم الحديث الرجوع إلى هذا العلم إذا أراد التوفيق للفهم الصحيح، فينبغي على المحدث بصفة خاصة والمجدد بصفة عامة معرفة الأصول التي سار عليها الأئمة لفهم السنة، لأن ذلك من شأنه أن يحافظ عليها، وأن تفهم فهما صحيحا، وبالتالي إيقاف الشطط والخلل في كثير من القراءات المعاصرة في السنة النبوية، وكثيرا ما نرى نتائج مخالفة للشريعة، ولا تمت إلى الحق بصلة، سببها القطيعة بين أصحابها وبين الأصول التي اعتمدها السلف الصالح لفهم النصوص.

١- محمد بن علي بن آدم الأثيوبي، شرح ألفية السيوطي ٢٥٨/١، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى،١٩٩٣م.

٢ - يحيي بن شرف أبو زكريا النووي، إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ٥٧١/٢، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: عبد الباري فتح الله السلفي.

عاشرا: ضرورة معرفة أسباب ورود الأحاديث.

إن معرفة أسباب النزول وأسباب الورود تجعل الإنسان مدركا لحقيقة المعنى وأبعاده، ويعايش جزئيات الأسباب، ووجه الارتباط بين النص والحكم، والحكمة التي تكون في هذا الارتباط، وهذا يُعين المجتهدين في كل عصر على معرفة الصفات المشتركة بين الفرع والأصل، إن الجهل بسبب ورود الحديث مظنة الوقوع في الإشكالات والشبه خصوصا للنصوص الظاهرة في الإجمال، فعدم معرفة السبب يخل بفهم الحديث، لذلك لا تفسر الأحاديث ذات السبب إلا بعد معرفة السبب، ومن الواضح أن الانعكاسات السلبية التي أصابت مجموعة من الأحكام الشرعية في الواقع المعاصر سببها الغفلة عن سبب ورود الحديث.

هذه الضوابط التي أشرت إليها آنفا هي غيض من فيض مما قدمه العلماء في القرون السابقة من خدمة السنة النبوية وتيسير وسائل فهم النص النبوي، وهي تعين على فهم النص النبوي فهما صحيحا ، لأن حسن الفهم يقود إلى حسن التعامل مع النص الشرعي، وهو ما ينعكس بالضرورة على حسن الخطاب الإسلامي في اعتداله ووسطيته وشموليته، وبالتالي يساعد على المحافظة على السلم الاجتماعي، وتحصين المجتمع من الغلو والتطرف، وفي المقابل فإن سوء فهم النص وعدم إدراك مقاصده، وبالتالي غياب خطاب الاعتدال يؤدي إلى الاضطراب في الشخصية، وعدم اتزانها، وهو ما يخلق جوا من التوتر والتعصب داخل المجتمع، وبث روح الفرقة والخلاف بين أبنائه.

المبحث الثالث: بيان الأسباب المؤدية إلى الانحراف في فهم الحديث.

إن العناية بفقه الحديث ومعانيه من الأمور التي اهتم بها علماء الحديث، يؤكد هذا أقولهم المأثورة في هذا الشأن، يقول علي بن خشرم: كنا في مجلس سفيان بن عيينة فقال: يا أصحاب الحديث تعلموا فقه الحديث لا يقهركم أصحاب الرأي[١]، وقال سفيان الثوري: تفسير الحديث خير من سماعه[٢]، فطلب معاني الحديث وفقهه من كنوز العلم التي يُطلب من كل أحد أن يسعى إلى تحصيلها، وسوء الفهم عن الله ورسوله صلى الله عليه نتيجة أدت إليها عدة أسباب يمكن حصرها في الآتي:

أولا:الجهل بمنهج أهل السنة والجماعة في فهم السنة النبوية.

إن الأساس الذي يُعتمد عليه في فهم كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هو النصوص القرآنية أو الحديثية المبينة لهذين المصدرين، قال الزركشي: أحسن طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان قد فصل في مكان آخر، وما اختصر في مكان قد بسط في آخر، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن ، وموضحة له، فإن لم يوجد في السنة يُرجع إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن، ولما أعطاهم الله من الفهم العجيب، فإن لم يوجد ذلك يُرجع إلى النظر والاستنباط بالشرط السابق[٣]، وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: إن

١- محمد بن عبد الله بن محمد أبو عبد الله الحاكم، معرفة علوم الحديث ص٦٦، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية،١٩٧٧م.

٢- يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ١١٤٤/٢، دار ابن الجوزي، المملكة العربية ، ط: الأولى، ١٩٩٤م.

٣- محمد بن بهادر أبو بدر الزركشي، البرهان في علوم القرآن ١٧٦/٢، دار إحياء الكتب العربية، ط: الأولى، ١٩٥٧م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

تفسير الحديث بالحديث أولى من الخوض فيه بالظن[١]، هذه الطرق التي أشار إليها المفسرون والمحدثون تجنب المجدد من الوقوع في الزلل، وتعصمه من الوقوع في الخطأ، وقد جانب الصواب أقوام حينما فسروا نصوص الوحي الإلهي بأهوائهم، وخالفوا منهج أهل السنة والجماعة، فضلوا وأضلوا، يقول د. حسن بن محمد حسن الأسمري: توسع أهل التغرب في استخدام المنهجيات الغربية مع الوحي إما لنقده والتكذيب به، أو لتحويله عن مراده إلى أبواب تتسع لاستخدامات المتغرب وإسقاط أفكاره على الوحي[٢].

ثانيا: الجهل بقواعد التأويل .

إن التأويل عند المتأخرين من الأصوليين هو: صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح بدليل يدل على ذلك[٣]، إن عدم الاعتناء بهذه القواعد – قواعد التأويل– يوقع في الخطأ والانحراف، مثال ذلك انحراف بعضهم في تفسير بعض الأحاديث كما فعل الشيخ الغزالي رحمه الله حينما قال: ومن ثم فإننا نتناول بحذر شديد ما جاء في حديث مسلم: (فو الله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون ما بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار٠٠٠الحديث.) إذا كان الحديث المذكور تنويها بشمول العلم الإلهي، وأن بدايات بعض الناس قد تكون مخالفة

١– أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري ٢١٣/١، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هجرية.

٢– د. حسن بن محمد حسن الأسمري، النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي ٩٦١/٢، دكتوراه، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، ط: الأولى، ٢٠١٢م.

٣ – محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة ص٣٦٠، ط: الخامسة، ١٤٢٧.

لنهاياتهم، فلا بأس من قبوله بعد الشرح المزيل للبس المبطل للجبر، أما المعنى القريب للحديث فمردود يقينا[١]، وليس في الأحاديث أو الآيات التي فسرها تبعا لأهل الاعتزال ما يشير إلى ما زعمه من الجبر، ولم يقل أحد من المحدثين بالجبر حتى يقول ما قال، وإنما في الأحاديث تنزيه للمقدر المانح المانع، وتقديره حق قدره من الهيمنة على عباده والعلم بشئونهم، وإسلام الوجه إليه سبحانه، وليس فيها ما يفيد إبطال العمل أو الدعوة إلى التواكل، فما من حديث منها إلا وفيه حث على العمل، وإصرار على السعي إليه، وإن اتهام الأحاديث بما ذكر لهو زعم باطل لمخافاته الحقيقة، والأحاديث بين أيدينا بما فيها من نصوص ترد عليه ما قرره[٢].

ثالثا: القصور في استيفاء الأدلة وتحقيقها فيما يتعلق بالمسألة الواحدة.

لكي يكون الفهم سليما ويكون الحكم في المسألة صحيحا لابد من جمع الأحاديث الصحيحة التي تتعلق بالمسألة، وهذا هو منهج أهل الحديث ، يقول سامح عبد الإله عبد الهادي: نجد أن أصحاب الأهواء المختلفة يتمسكون بالنصوص التي يعتقدونها أدلة لمذاهبهم، معرضين بذلك عن باقي النصوص التي تبين عند ضمها إلى نصوصهم فساد مذاهبهم وانحرافهم ، والأمثلة على ذلك كثيرة شهيرة، فالمرجئة مثلا يتمسكون بنصوص الوعد معرضين عن الأحاديث والآيات التي تتوعد أصحاب الذنوب والكبائر بالنار والعذاب، كما ونجد الخوارج في المقابل يتمسكون بأحاديث الوعيد، معرضين بذلك عن أحاديث الشفاعة وغيرها، ونجد الشيعة يتمسكون

١- محمد الغزالي، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص١٤٥، دار الشروق، بيروت،١٤٠٩ هجرية.

٢- د. عبد الموجود محمد عبد اللطيف، السنة بين دعاة الفتنة وأدعياء العلم ص١٧٥، ط: الأولى، يناير ١٩٩٠م.

بالأحاديث التي تظهر فضل علي رضي الله عنه، ويعرضون عن الأحاديث التي تحدثت عن فضائل أبي بكر وعمر وعثمان، وفي المقابل نجد النواصب يمجدون معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما متمسكين بما ورد فيه من الأثر، معرضين عن الأحاديث التي تتحدث عن فضل آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وحقوقهم على غيرهم[١].

رابعا: عدم تدقيق النظر في ملابسات النص وعدم العناية بأسباب وروده.

من أسباب الانحراف في فهم الحديث قلة العناية بالملابسات التي سيق فيها النص، فقد يكون مرتبطا بعلة معينة يوجد بوجودها ويزول بزوالها، أو سيق في ظرف معين ، أو ذكر لسبب خاص، فلا يصح والحال هذا أن يعمم الحكم المأخوذ منه ، أو يعمل به على الدوام[٢] ، ومن أبرز الأدلة على ذلك ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: **مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ أَوْ مَكَّةَ فَسَمِعَ صَوْتَ إِنْسَانَيْنِ يُعَذَّبَانِ فِي قُبُورِهِمَا ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ) ، ثُمَّ قَالَ: (بَلَى كَانَ أَحَدُهُمَا لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بَوْلِهِ ، وَكَانَ الْآخَرُ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ ، ثُمَّ دَعَا بِجَرِيدَةٍ ، فَكَسَرَهَا كِسْرَتَيْنِ ، فَوَضَعَ عَلَى كُلِّ قَبْرٍ مِنْهُمَا كِسْرَةً ، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ فَعَلْتَ هَذَا ؟ قَالَ: لَعَلَّهُ أَنْ يُخَفَّفَ عَنْهُمَا مَا لَمْ تَيْبَسَا ، أَوْ إِلَى أَنْ يَيْبَسَا**[٣])، حيث تمسك بعض العلماء بهذا الحديث قائلين باستحباب وضع الجريد على القبور لمعنى فيه ليس في اليابس، فأجاب بعض المحدثين عن ذلك بأن التخفيف لم يكن بسبب الجريد الرطب ولكن بسبب شفاعته

١- سامح عبد الإله عبد الهادي، الانحراف في فهم الحديث النبوي دراسة تأصيلية تطبيقية ص٨٩، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٠م.

٢- المصدر السابق ص١١٦.

٣- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب: من الكبائر أن لا يستتر من بوله، رقم: (٢١٦).

صلى الله عليه وسلم، قال الخطابي رحمه الله: هو محمول على أنه دعا لهما بالتخفيف مدة بقاء النداوة، لا أن في الجريد معنى يخصه ، ولا أن في الرطب معنى ليس في اليابس، قلت: ويؤيده ما ذكره مسلم في آخر الكتاب في الحديث الطويل حديث جابر في صاحبي القبرين (فأحببت بشفاعتي أن يرفع ذلك عنهما ما دام العودان رطبين)، والله أعلم[١].

خامسا: الجمود على ظاهر النص.

السياق قرينة من القرائن التي يستعان بها على فهم النص ، إلا أن دلالة السياق تكون ظاهرة تدرك من غير فكر وروية، وتارة تكون خفية لا تدرك إلا بمزيد نظر وتأمل، يقول سامح عبد الإله: يقصد بالجمود الوقوف على ظاهر النص من غير التفات إلى العلة الجامعة التي تفيد الفقيه في تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع ، لاشتراكهما فيه، ويقصد به أيضا الوقوف على ظاهر نص متشابه من غير رده إلى المحكم من النصوص، فهذا يوقع أيضا في الانحراف والشذوذ[٢]، يؤكد هذا ما ذهب إليه البعض حينما أفتوا بجواز مصافحة الرجل للمرأة الأجنبية اعتمادا على ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه قال: **إِنْ كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ**[٣]، لكن الحافظ ابن حجر رحمه رد هذا الفهم قائلا: والمقصود من الأخذ باليد لازمه ، وهو الرفق والانقياد، والتعبير بالأخذ باليد إشارة إلى غاية التصرف حتى لو كانت حاجتها خارج المدينة، والتمست

١- محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود ١/٢٥.

٢- سامح عبد الإله عبد الهادي، الانحراف في فهم الحديث النبوي دراسة تأصيلية تطبيقية ص١٢٦

٣- ذكره البخاري تعليقا في صحيحه، كتاب الأدب، باب الكبر، تحت رقم: (٦٠٧١).

منه مساعدتها في تلك الحاجة على ذلك، وهذا دال على مزيد تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر صلى الله عليه وسلم[١].

سادسا: تأثر المستغربين بتفسيرات المستشرقين للحديث النبوي.

وجد الغرب أن الإسلام قد جذب إليه أناسا كثيرين من الملل الأخرى سواء النصرانية أو اليهودية أو المجوسية، وامتدت حدوده غربا وشرقا، وأن جيوشه وصلت إلى قلب العالم النصراني، وناهيك عن تراثه الفكري والعلمي الذي أثر في شعوبهم وحكامهم، لذا اتفق الملوك والأساقفة على حرب الإسلام بكل الطرق الممكنة، ليوقفوا مده وزحفه وانتشاره، لذا كان هناك طريقان سارا فيه، وهما: الحرب والسلاح، والتشويه والتزوير لحقائقه وتراثه الفكري[٢]،يقول د. محجوب أحمد طه: وقد سلك المستشرقون طرقا شتى ليصلوا من خلالها إلى أهدافهم التي ترمى إلى الطعن في الإسلام من خلال التشكيك في القرآن الكريم والرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وسنته المشرفة، وبعض هذه الأساليب التي انتهجها المستشرقون تتلخص في الحرص في كتاباتهم على إظهار الإسلام وكأنه قد أخذ تعاليمه من اليهودية والنصرانية وغيرهما ، يضاف إلى ما سبق نشر العلمانية في الأمة الإسلامية وتشكيك المسلمين في قدسية القرآن الكريم والسنة النبوية،حتى يسهل تفكيك هذه المجتمعات لتكون جاهزة لقبول الفكر التنصيري[٣]، وقد طعن المستشرقون في السنة الشريفة قديما وحديثا، وقام جولد تسهير بتأليف كتابه دراسات إسلامية، شكك في صحة الأحاديث ،كما شكك في نقلها، ووصولها إلينا،

١- أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري ١٠/٤٩٠.

٢ - طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي ص٢٣، مكتبة النافذة، ط: الأولى، ٢٠٠٦م.

٣ - د. محجوب أحمد طه، نظرة المستشرقين للإصلاح والتجديد دراسة نقدية ص٢٨٧ بتصرف، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد (١٦)، ١٤٢٩هجرية.

وقد تأثر بهذا الكتاب البعض من أبناء المسلمين ممن درسوا الثقافة الغربية، ففعلوا مثل ذلك بالسنة المطهرة، حيث قام فريق منهم بإنكارها جملة وتفصيلا، كما أن شاخت عقد كتابا بعنوان أصول الشريعة المحمدية طعن به على الأحاديث خاصة الفقهية منها، حتى انتهى إلى حكم كاذب هو أنه ليس هناك حديث واحد صحيح في أبواب الفقه، ومع أنه كاذب في زعمه إلا أن بعض الأغرار ممن استغربوا اعتبروه أستاذا لهم، وقلدوه في هذا الطعن على السنة الشريفة ، وغايتهم واضحة، وهي النيل من مصادر الإسلام الصحيحة، ويتابع صاحب ضحى الإسلام هذا التصور الغريب فيزعم أن مسلمة أهل الكتاب أدخلوا أقوالا من الإنجيل دست على أنها أحاديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مقتديا بجولدتسهير الذي زعم أن حديث (إنكم سترون بعدى أثرة وأمور تنكرونها، قالوا فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: (أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم)، قد أخذت مما ورد في إنجيل متى (أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله)، ومن الغريب أن يقبل صاحب ضحى الإسلام متابعة المستشرق الذي يفتقد أصول البحث العلمي، ويردد مقولته، ويعتبرها حقا يجب اتباعه، بدليل أنه لم ينكره، كما لم يعقب عليه، فأدى ذلك إلى خطر كبير، وهو إنكار الحديث الصحيح طالما كان مأخوذا من الإنجيل الذي جاء للمسيحية، وليس للإسلام، ومناقشته من خلال مايلي:

أولا: فقدان الأمانة العلمية .

من المعلوم أن الأمانة العلمية تلزم الباحث الموضوعي ألا يحكم على ظاهرتين بالتشابه إلا إذا بحث كافة الجوانب المتعلقة بهما، حتى إذا خلص من ذلك كله انتهى إلى النتيجة، وهي وجود ذلك الشبه من عدمه، فإذا لم يتم القيام بذات الواجب فإن ما يصل إليه من نتائج تعتبر من قبيل الرجم بالغيب، لا يلتفت أحد إليه لمخالفته

المنهج العلمي، وضوابط الأمانة العلمية، وهذا مما ينطبق على ما ذكره تسهير المستشرق، وتابعه فيه أحمد أمين المستغرب.

ثانيا: انعدام التشابه في السبب والغاية.

حاول المستشرق إيجاد وجه شبه بين عبارة الإنجيل التي جاءت في واقعة تعبر عن محاولة الفريسيين اصطياد يسوع بكلمة تقع له الإدانة من خلالها، يقول متى: ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة، فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسيين قائلين يا معلم: نعلم أنك صادق، ونعلم طريق الله بالحق، ولا نبالي بأحد، لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس، فقل لنا: ماذا تظن أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم، وقال: لماذا تجربونني يا مراءون، أروني معاملة الجزية، فقدموا له دينارا، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله، يقول القس أنور جيدل: إن يسوع أراد إحراجهم، بحيث يجبرهم على دفع الجزية لقيصر، لأنه يعلم أنهم مراءون، واستطاع الهرب من مسئولية امتناعهم عن دفع الجزية، حتى لا يكون هو في مواجهة مع السلطة الحاكمة، وبهذا استطاع أن يغلبهم ويلحق الهزيمة بهم، ومن ثم فالسبب والغاية الموجودان في عبارة الإنجيل لا يوجد بينهما شيء من التشابه مع الحديث الشريف.

ثالثا: شهادة الواقع.

من الواضح أن القصة تمثل عبارة سياسية تحمل واقعة محددة بالنسبة ليسوع، وليست حكما عاما، ومن ثم اعتبرها شراح الأناجيل وسيلة للهرب من الأعداء الذين كانوا يتربصون بيسوع، ويريدون الإمساك به، والتعامل معه معاملة المرتكب لجريمة هو لا يريد الإقرار بها ، ولا الاعتراف بمضمونها، وهذا مما لا علاقة له بالحديث الشريف أبدا الذي زعموا اقتباسه منها، أما ما جاء في الحديث الشريف فمتعلق بأمور الغيب،

وذلك من أخباره صلى الله عليه وسلم بالغيبيات المتعلقة بالسياسة وكيفية التعامل معها عند وقوعها، وبناء عليه فزعم المستشرق وجود الاقتباس المؤدي إلى الطعن في السنة الشريفة مردود عليه، كما أن مجاراة المستغرب لأستاذه دليل على أنه قليل البضاعة في الحديث الشريف، إذ لو كانت بضاعته أصلية لعرف أن الحديث صحيح، ولا يوجد أدنى وجه للتشابه بينه وبين ما ورد في الإنجيل بحال من الأحوال[١]، إن هذه الدعوات والأفكار المستوردة من الغرب الحاقد تشكل خطرا حقيقيا على الفهم الصحيح للنصوص الشرعية، لذلك فمن الواجب على العلماء أن يبينوا حقيقة هذه الدعوات، وأن يعملوا على رد شبهاتهم وكشف ضلالاتهم، وأن يوحدوا الجهود ويخلصوا النية، لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

١- د. مريم محمد علي المغربي، الاستغراب وخطره على السنة النبوية الشريفة ص٣٥ وما بعدها، حولية كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر بالمنوفية، عدد (٣٣)، ٢٠١٤م.

المبحث الرابع: الفرق بين التجديد عند السلف الصالح و العصرانيين.

إن التجديد السني يهدف إلى التقريب بين واقع المجتمع المسلم في كل عصر وبين المجتمع النموذجي الأول الذي أنشأه الرسول صلى الله عليه وسلم ، كما أنه يهدف أيضا إلى تصحيح الانحرافات النظرية والفكرية والعملية والسلوكية وتنقية المجتمع من شوائبها، أما مفهوم التجديد الخاطئ فهو ذلك المفهوم الذي تقدمه العصرانية، وهو الذي شاع في هذا العصر كأثر من آثار مواجهة الإسلام للحضارة الغربية، حيث تسعى العصرانية إلى تقديم خليط من الإسلام ومن جاهلية الغرب، وتجتهد في إيجاد المواءمة بينهما، وتعتمد في ذلك أسلوب التأويل والتحوير لتعاليم الإسلام، وأسلوب التنازلات والتسويغ باسم الاجتهاد[١]، يقول د. عبد العزيز مختار إبراهيم: وأذكر هنا خلاصة مختصرة أتناول فيها أهم الفروق بين التجديد السني عند السلف الصالح والتجديد العصراني المذموم، وهي على النحو الآتي:

١-المجددون من السلف الصالح رجال معروفون مشهود لهم بالعلم والاجتهاد والفضل والسابقة، بخلاف أدعياء التجديد من العصرانية فلم يشهد لهم أحد من أهل العلم أنهم أهل لذلك ، فضلا عن أن يكونوا مجتهدين مجددين.

٢- المجددون على طريقة السلف الصالح مشهود لهم بمناصرة السنة علما وعملا وبمناصرة أهلها، بخلاف العصرانية فلم يؤثر عنهم مناصرة للسنة البتة، ولا الدفاع عن أهلها، بل هم على نقيض ذلك كما سبق.

١- بسطامي محمد سعيد خير، مفهوم تجديد الدين ص٢٧٣، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، ط: الأولى،٢٠١٢م.

٣- المجددون من أهل السنة معروفون بإحياء السنة وإماتة البدعة، بخلاف أدعياء التجديد العصرانيين فهم مجانبون للسنة، مناصرون لأهل البدعة ومدافعون عنها كما سبق بيانه.

٤- إن الدعوة إلى التجديد السني القائم على وفق منهج السلف الصالح هو موصول بالماضي العريق وما كانوا عليه من الالتزام بالكتاب والسنة، كذلك التجديد العصراني موصول بسلفهم من المتكلمين والفلاسفة العقلانيين، وأهل الأهواء، ولكل قوم وارث، والمرء على دين خليله.

٥- التجديد عند أهل السنة ربط للأمة بتراثها الماضي، وإحياء لما اندرس من تلك التراث، بخلاف التجديد عند العصرانيين فهو هدم لما كان عليه السلف، ورفض لكل ما هو سلفي[١].

١- د. عبد العزيز مختار إبراهيم ، العصرانيون ومفهوم التجديد عرض ونقد ص٩٠، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ٢٠٠٩م.

المبحث الخامس: سبل مواجهة التجديد التحريفي.

استغل أدعياء التجديد وسائل الإعلام المختلفة لبث سمومهم وأفكارهم المنحرفة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وعلى المجددين الحقيقيين دور هام في مواجهة هذه الأفكار الهدامة، إذ إن أفكار أدعياء التجديد الهدامة لا تمت إلى التجديد السني بصلة ، وقد حمى الآن الوطيس، والمعركة على أشدها بين جند الرحمن وأولياء الشيطان، والغلبة لجند الرحمان، والخذلان والهزيمة لعبيد الشيطان ، فمن ذلك كشف خطط الأعداء وبيانها، والمساعدةُ في نشر ذلك بين الناس باستخدام وسائل النشر المتاحة، وتعريفُهم بخطورة المعركة وطبيعتها وميدانها، ومن ذلك بيانُ مخالفة تلك المشاريع التحريفية للشرع المنزل، وما يترتب على قبولها من إضاعة للدين والدنيا معا، ومن ذلك جمعُ مادة تعريفية مناسبة عن أصحاب الخطاب التجديدي التحريفي والترجمة لهم، وبيان أحوالهم، حتى يحذرهم الناس، وحضُ أصحاب القرار السياسي على الصمود والثبات وعدم الاستجابة لمطالب التجديد المزعوم، وشد أزرهم ومساندتهم والوقوف معهم في ذلك، والعناية بالتعليم الشرعي والتعليم التقني، وتيسير أسبابه والتشجيع عليه من أجل تحصيل القوة وامتلاكها، ومن ذلك ترسيخ منهج التلقي الصحيح عند الناس، بحيث لا يقبل الكلام إلا من أهله المأمونين والمعروفين بغيرتهم على الدين، وللمسلم الحق في أن يسأل عن دليل كل قول، وعن مدى صحته، وعمن استدل بهذا الدليل على تلك المسألة من أهل العلم المتقدمين، وفي أي مرجع أو مصدر يمكن الإطلاع على ذلك، إن هذا المنهج في التلقي يمثل دعامة قوية من دعامات إهدار أقوال أهل التجديد التحريفي، جعلنا الله من المجددين الحقيقين لا من المحرفين[١].

١- محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف ص١٤٧، مجلة البيان، الرياض، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.

نتائج البحث.

أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث تتلخص في الآتي:

١-التجديد السني هو: استئناف العمل بالدين اعتقادا وعملا، وإحياء ما اندثر من السنن ، وإماتة ما ابتدع من البدع والمحدثات.

٢- التجديد الحقيقي هو: النظر في الواقع المعاصر وتقويمه من خلال المنهج النبوي.

٣- عدم إخلاص المجدد يؤدي إلى ضياع الجهد، ومجانبة الصواب، وعدم التوفيق للحق.

٤- عدم تحصيل أدعياء التجديد لعلوم الآلة نجم عنه أقوال شاذة ، وآراء مرجوحة ، ومخالفة للثوابت.

٥- أخذ علوم السنة عن أهلها يؤدي إلى فهم النص النبوي فهما صحيحا.

٦- التعصب يحول دون الوصول إلى الحق ، ويحد من قدرة العقل على الفهم الصحيح للنص النبوي.

٧- الاعتماد على طريق واحد أو رواية واحدة غير كاف لفهم النص النبوي ، أو استنباط حكم منه، أو إصدار فتوى.

٨- معرفة الناسخ والمنسوخ من الأحاديث من ضرورات الفقه والاجتهاد، والخوض في دراسة السنة دون علم به تؤدي إلى الزلل في القول والاستنباط.

٩- عدم إلمام أدعياء التجديد بعلم مختلف الحديث أدي إلى سوء الفهم ومجانبة الصواب.

١٠- معرفة المراد من النص النبوي لا يتم إلا بمعرفة أسباب الورود حتى لا يتعرض المجتهد لشطحات الظنون ، أو الجري وراء ظاهر غير مقصود.

١١- الجهل بمنهج أهل السنة والجماعة في فهم النص والجهل بقواعد التأويل والوقوف على ظاهر نص متشابه دون رده إلى المحكم وعدم استيفاء الأدلة من الأسباب الرئيسية في انحراف الأفهام وشذوذ الأفكار.

التوصيات.

١- ضرورة كشف خطط أدعياء التجديد من قبل العلماء المتخصصين وبيانها للعوام والخواص.

٢- العناية بالتعليم الشرعي والتعليم التقني، وتيسير أسبابه والتشجيع عليه لتحصين الناشئة من الأفكار الهدامة والمعلومات المغلوطة التي يثيرها أدعياء التجديد.

٣- إفساح المجال لأرباب التجديد السني في وسائل الإعلام المختلفة فالفكر لا يقاوم إلا بالفكر ، والحجة تقارع بالحجة.

ثبت المصادر والمراجع.

حرف الألف.

١- أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، مكتبة المعارف، الرياض، تحقيق: د. محمود الطحان.

٢- أحمد بن علي بن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هجرية.

٣- أحمد بن محمد بن حنبل، المسند، دار الحديث، القاهرة، ط: الأولى، ١٩٩٥م، تحقيق: أحمد محمد شاكر.

٤- أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، دار الفكر الحديث، لبنان، ط: الثانية، ١٩٦٧م.

٥- أنور الجندي، شبهات التغريب في غزو الفكر الإسلامي ، المكتب الإسلامي، ١٩٧٨م.

حرف الباء.

بسطامي محمد سعيد خير، مفهوم تجديد الدين ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، ط: الأولى،٢٠١٢م.

حرف الحاء.

١-حسن بن محمد حسن الأسمري، النظريات العلمية الحديثة مسيرتها الفكرية وأسلوب الفكر التغريبي ، دكتوراه، قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، جامعة الإمام محمد بن سعود، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، جدة، السعودية، ط: الأولى، ٢٠١٢م.

٢- حمزة محمد قاسم، منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، دار البيان، دمشق، سوريا، ١٩٩٠م.

حرف السين.

١-سامح عبد الإله عبد الهادي، الانحراف في فهم الحديث النبوي دراسة تأصيلية تطبيقية، رسالة ماجستير، جامعة النجاح الوطنية، ٢٠١٠م.

٢- سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، المعجم الكبير، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط: الثانية، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي.

٣- سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني، السنن، دار الرسالة العالمية، ط: الأولى، ٢٠٠٩م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط.

حرف الطاء.

طارق سري، المستشرقون ومنهج التزوير والتلفيق في التراث الإسلامي، مكتبة النافذة، ط: الأولى، ٢٠٠٦م.

حرف العين.

١- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تدريب الراوي ، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف.

٢-عبد العزيز مختار إبراهيم ، العصرانيون ومفهوم التجديد عرض ونقد، مكتبة الرشد، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط: الأولى، ٢٠٠٩م.

٣- عبد الكريم زيدان، الوجيز في أصول الفقه ، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط:الخامسة، ١٩٩٦م.

٤- عبد الموجود محمد عبد اللطيف، السنة بين دعاة الفتنة وأدعياء العلم، ط: الأولى، يناير ١٩٩٠م.

٥-علي بن خلف أبو الحسن ابن بطال، شرح صحيح البخاري، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض، ط: الثانية، ٢٠٠٣م.

حرف الميم.

١-محجوب أحمد طه، نظرة المستشرقين للإصلاح والتجديد دراسة نقدية، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد (١٦)، ١٤٢٩هجرية.

٢- محمد بن إدريس الشافعي، الرسالة ، مكتبة الحلبي، مصر، ط: الأولى، ١٩٤٠ هجرية، تحقيق: أحمد شاكر.

٣-محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، دار طوق النجاة، ط: الأولى، ١٤٢٢هجرية.

٤- محمد بن بهادر أبو بدر الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، دار إحياء الكتب العربية، ط: الأولى، ١٩٥٧م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

٥- محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، ط: الخامسة، ١٤٢٧.
٦- محمد بن شاكر الشريف، تجديد الخطاب الديني بين التأصيل والتحريف، مجلة البيان، الرياض، ط: الأولى، ٢٠٠٤م.
٧- محمد شمس الحق العظيم آبادي، عون المعبود شرح سنن أبي داود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية، ١٤١٥هجرية.
٨- محمد بن عبد الله بن محمد أبو عبد الله الحاكم، المستدرك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى، ١٩٩٠م، معرفة علوم الحديث ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الثانية،١٩٧٧م.
٩- محمد بن علي بن آدم الأثيوبي، شرح ألفية السيوطي، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى،١٩٩٣م.
١٠- محمد بن علي بن محمد الشوكاني، أدب الطلب ومنتهى الأدب ، دار ابن حزم ، بيروت، لبنان، ط: الأولى، ١٩٩٨م.
١١- محمد الغزالي، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ، دار الشروق، بيروت،١٤٠٩ هجرية.
١٢- محمد يسري إبراهيم، فقه الأولويات في الخطاب السلفي المعاصر، دار اليسر، مصر، ط: الثانية، ٢٠١٢م.
١٣- مريم محمد علي المغربي، الاستغراب وخطره على السنة النبوية الشريفة، حولية كلية أصول الدين والدعوة، جامعة الأزهر بالمنوفية، عدد (٣٣)، ٢٠١٤م.
١٤- مصطفى ديب البغا، الواضح في علوم القرآن، دار الكلم الطيب، دمشق، ط: الثانية ، ١٩٩٨م.

حرف النون.

نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، دمشق، سورية، ط: الثالثة، ١٩٨١م.

حرف الياء.

١- يحيي بن شرف أبو زكريا النووي، إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، السعودية، ط: الأولى، ١٩٨٧م، تحقيق: عبد الباري فتح الله السلفي.

٢- يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية ، ط: الأولى، ١٩٩٤م.